المقتل الحسيني جنساً أدبيّاً إسلاميّاً

المدرس الدكتور
علي محمد ياسين
جامعة كربلاء - كلية العلوم الإسلامية
alyassenali@yahoo.com

المقدمة:

شغلت مسألة الأجناس الأدبية والمفاهيم المتعلّقة بها أذهان المهتمين بالأدب ونظرياته منذ القدم؛ بعدّها مسألة تدخل ضمن التقاليد الجماليّة التي تشكّل الأعمال الإبداعيّة أسلوبيّا وموضوعيّا، ولا يمكن بأي حال من الأحوال فصل نظريّة الأجناس الأدبيّة عن تفكير الثقافة التي يزدهر بين أحضانها جنس ما، على اعتبار أن كلّ ثقافة بحاجة إلى ضوابط ومحدّدات تنظّم مجالات منجزها الإبداعي وفضاءاته المختلفة، وهذه المحدّدات والضوابط هي: (تاريخيّة متولّدة عن تصوّر يمكن أن تغيّره عوامل التطوّر ودخول ملابسات جديدة في السياق الحاف)[1]. غير أنّ ضرورة وجود هذه المحدّدات والضوابط لا يعني أنّ الأدب - بالنتيجة - إبداع قابل للحصر والإحاطة التامّة، فالأدب نشاط إنساني له مفاهيمُه المتعدّدة والمتغيرة واللامستقرّة، وهذا ما يجعله مستعصيا على الحصر والتحديد إلى درجة دعت بعض المنشغلين بنظريّات الأدب ومفاهيمه إلى أن يعرّفه (بأنّه كلُّ شيء قيد الطبع)[2]. كما جعلت واحدا من أشهر مؤرّخي الآداب في العالم يوسّع من دائرة الأدب العربي عند رصده لمدوّناته وتآليفه لتشتمل على كتب الفقه والتفسير والسيرة النبويّة والأخلاق وسوى ذلك[3].

إنّ مصطلح الأدب الذي نحاول إدراج المقتل الحسيني ضمن إطاره هو مصطلح يمتنع عن التحديد القاطع والنهائي، ممّا يتعسّر الوصول إلى تعريف جامع مانع له، فالأدب كما حدّه ابن خلدون قديما (علم لا موضوع له، ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنّما المقصود عند أهل اللسان ثمرتُه، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على المَلَكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرّقة يستقري منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربيّة مع ذكر بعضٍ من أيّام العرب يُفهم به ما يقع في

أشعارهم منها، وكذلك ذكر المهمّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامّة...)[٤]، وعليه فمحاولة تعريف الأدب محاولة فاشلة، وسابقة لأوانها، ولن تنتج ثمارها إلّا في ظلّ نظرية شاملة لأنماط الخطاب المختلفة[٥].

ينطلق هذا البحث - إذن - من رغبة شديدة في دراسة المقتل الحسيني بوصفه ملفوظا يُنجز في سياق لغوي معروف ومقام تخاطب مخصوص بين طرفين: متكلّم وسامع، أملا في استقصاء دلالات هذا الملفوظ، وتحديد سماته الأدبيّة العامة، على ما في هذا الأمر من عسر شديد لعدة أسباب، منها: أنّ هذا اللون من القول بالرغم من أهميّته في الحياة العامة لملايين الناس فقد أُهمل في الدراسات والبحوث الأكاديميّة أيّما إهمال دون أن نجد سببا مقنعا لذلك.

وثاني هذه الأسباب يكمن في أن تقاليدنا الثقافيّة لو تهيّأ لها أن تدرج المقتل في سياقه التصنيفي فإنهاّ لن تنزله منزلة تتجاوز حقلي التاريخ والسيرة الدينيّة! وهو ما سيُعمي عن الالتفات إلى نصيبه الوافر من الحضور في الحياة الثقافيّة، وما يترتّب على هذا الحضور من قيم أدبيّة وأخلاقيّة واجتماعيّة تُلزم أن يتوافر عليها المقتل عند قراءته والإصغاء إليه في المناسبات الدينيّة المعروفة للمسلمين الشيعة على وجه التحديد.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة الموجزة أن نعقد لها أربعة مباحث اختلفت حجما ومساحة بحسب المادة التي تعالجها، فضلا عن تمهيد كانت غايته الوقوف على مفهوم التجنيس الأدبي بشكل موجز، وقد أبرزت الدراسة طبيعة المقتل الحسيني ونشأته في مبحثها الأول، وفي المبحث الثاني كان الحديث عن مجموعة وظائف ذات طبيعة أدبية يحقّقها المقتل عند قراءته أو الاستماع إليه، في حين أخذ المبحث الثالث على عاتقه وصفا موجزا لطبيعة البنية الأدبية التي يتشكّل على وفقها المقتل الحسيني، أما المبحث الأخير فقد بيّن قابلية المقتل واستجابته لتوسّلات للمناهج النقديّة المختلفة بما يتوافر عليه من اشتراطات ترشّح كونه جنسا خاصّا، وإن تشكّل في الأصل من عناصر تندرج ضمن نظام معروف ينطوي على الأخبار والسير والوقائع المشهورة، وقد قامت هذه المباحث على منهج وصفي يعتمد التركيب والاستنتاج ركيزة للوصول إلى مسوّغ نقدي يتيح لنا إدراج المقتل الحسيني جنساً أدبيّاً إسلاميّاً قائماً بذاته.

تمهيد:

ظلّت الآداب بوصفها نشاطا إنسانيّا وعلى اختلاف فنونها القوليّة مثارا لاهتمام الفلاسفة والمفكرين في مختلف الأمم، فقد اهتم فلاسفة الرومان والإغريق والعرب وغيرهم بآدابهم وصنّفوها إلى أنواع محدّدة وأجناس معيّنة بحسب اشتراطات وخصائص حاولوا تقنينها وتحديدها.

ومنذ عهد أرسطو طُرح سؤال الجنس الأدبي، وسؤال ماهية الأجناس الأدبيّة الحقيقية والعلاقات الرابطة بينها، وهو السؤال الذي قد يقود إلى تحديد ماهيّة الأدب وطبيعته، فأرسطو هو المنظّر الفلسفي الأول للأجناس الأدبية، إذ حاول تقعيدها وتصنيفها بطريقة علميّة قائمة على الوصف وعلى تحديد السمات المشتركة والمكونات الضابطة، كما قسّم الأدب إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي: الأدب الغنائي والملحمي والدرامي[٦]، مع أن هناك من يشكك بصحة نسبة هذا التقسيم لأرسطو[٧]، فضلا عن وجود من لا يعتقد بنهائيّة هذه التقسيمات، ولا يميل لصحتها[٨].

وقد عرف موروثنا الأدبي والنقدي القديم جهودا عديدة حاولت أن تضع الحدود بين الظواهر التي ميّزت آداب العرب وفنونهم القوليّة، إذ قسم النقاد والبلاغيون العرب القدماء الشعر مثلا، إلى أغراض حدّدوها بحسب المضامين التي يشتمل عليها؛ على اعتبار أن الجانب الشكلي ظلّ ملازما في أشعارهم لنظام الشطرين زمنا طويلا، كما أنّ تلك الجهود لم تغفل محاولات وضع الحدود للظواهر النثريّة التي عرفتها حياة العرب الأدبيّة المزدهرة من أجل التمييز بين أنواعها وأجناسها المختلفة[٩]. وفي العصر الحديث أصبح موضوع الأجناس الأدبيّة من المواضيع القادرة على إثارة أسئلة إشكاليّة عديدة في تاريخ الأدب والنقد الأدبي وفي علاقتهما الخاصة والمتبادلة[١٠]، كما بات موضوع الأجناس من أهم مواضيع نظرية الأدب لما له من دور فعّال في فهم آليّة النص، وفي تتبّع بنياته الداخليّة بغية محاصرة النوع الأدبي وتحديد طبيعة الجنس وتقنينه بناءً ودلالة ووظيفة، وبالتالي فإن هذا الموضوع أخذ يَطرح ضمن التفكير في الظاهرة الأدبيّة مسائلَ فلسفيّة عديدة متعلّقة بالصلة بين الأفراد الذين يؤلّفون أنواعا أدبيّة مختلفة وبين الواحد والمتعدّد وطبيعة الكليّات[١١].

ومع مرور الزمن تبلور مفهوم خاص للجنس الأدبي، فأصبح على إثر ذلك شبيها

بالمؤسسة القائمة بذاتها - على حدّ تعبيري رينيه ويليك وأوستن وارين - إذ (إنّ للكنيسة أو الجامعة أو الدولة مؤسسة، وهو [أي الجنس الأدبي] لا يوجد كما يوجد الحيوان أو حتى البناء أو الأبرشية أو الجامعة أو المكتبة أو دار المجلس النيابي، بل كما توجد المؤسسة. فإن بإمكان المرء أن يعمل من خلال المؤسسة القائمة ويعبّر عن نفسه بواسطتها، أو يتنكّر لمؤسسة جديدة، أو أن يعيش بقدر الإمكان بدون أن يشارك في السياسات أو الشعائر، كما أن بإمكان المرء - أيضاً - أن يلتحق بالمؤسسات ثم يعيد تشكيلها بعد ذلك...)[١٢].

ومن كلام هذين المنظّرين تبدو الإشارة واضحة إلى أهميّة القيمة العلميّة لدراسة نظرية الأجناس الأدبيّة، فهما يعدّان الجنس الأدبي مؤسسة مثل باقي المؤسسات (الكنيسة، الدولة، الجامعة... إلخ) التي تنظّم الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية وترتّب العلاقات بين أفراد هذه المؤسسات على اختلاف مشاربهم، كما يعتبران نظرية الأجناس مبدأ لتنظيم الحياة الأدبية، ودليلا على ما تشهده هذه الحياة من حركيّة وتغيّر، إذ يرى هذان المنظّران إن إحدى القيم الواضحة في دراسة النوع أو الجنس هي كونه يُلفت النظر إلى التطوّر الداخلي للأدب[١٣]. ومهما بدت مشكلة التجنيس شاقة ومعقدة فإنه يمكن الوصول من خلال فحص التحديدات المختلفة التي تعاقبت على مفهوم الجنس الأدبي إلى (معنى يجعل الجنس مرتبطا بوضع التقاليد التي تشكل أفق الانتظار عند المتلقي فترسم له طريقة استقبال النص. كما يرتبط بالتقاليد المتصلة بنوع الموضوعات والأساليب التي يمكن أن تتحقق داخل النص نفسه؛ بما يعني أن الجنس الأدبي مرتبط أساسا بترسيخ تقاليد أدبيّة معينة)[١٤]. وعندما يستقبل القارئ هذا الأثر فهو يستقبله بضوابط وبشروط معيّنة تعتمد على أفق انتظار أساسه جملة من القواعد المستخلصة من خبرات تلق، أو من قراءات سابقة، تشكل - في مجملها- تقاليد النوع الأدبي، ولهذه الاعتبارات كان من الصعب الدفاع عن مبدأ كون الأثر نتاجا فرديا أفرزته عبقريّة مبدعة، أو إلهام شخصي ليس من الضرورة أن يدخل في علاقة مع آثار الماضي وتشابكاته. وتأسيسا على ما تقدّم فإن الحاجة إلى تصنيف مكوّنات الظاهرة الأدبيّة وتجنيسها ستزداد كلّما تجاوز الأمرُ مباحث الأدب إلى بنية الثقافة التي أنتجته وإلى الأصول التي شكّلته، لأنّ مسألة الأجناس الأدبيّة وطريقة التفكير بها تندرج في قضية أشمل تتمثّل في الكيفيّة التي تعتمدها كلّ ثقافة في تنظيم فضاءات منجزها الأدبي[١٥].

ومن منطلق ضرورة الاهتمام بتجنيس الأشكال الأدبيّة وتحديدها ورصد تداخلاتها وتطوّراتها استوجب الحديث هنا عن ظاهرة أدبيّة - ثقافيّة، قديمة - جديدة مارستها، ولا زالت تمارسها مجموعات واسعة من الشعوب الإسلاميّة في بلدان متعدّدة وبلغات متعدّدة (العربيّة، الفارسيّة، الإنجليزيّة، الأورديّة، إلخ) وهي ظاهرة (المقتل الحسيني) الذي تكاثرت نصوصه، وازداد شُرّاحه، وتكرّرت طبعاته وتنوّعت على امتداد الزمان وعلى اختلاف المكان؛ ممّا شكّل ذلك تقليدا ثقافيّا خاصّا يؤول من باب التصنيف إلى أن يندرج ضمن نمط معيّن، وهذا النمط الثقافي جاز له أن يأخذ مصطلحا خاصا (المقتل) استطاع بوساطته تجاوز حدود اللغة الأصليّة التي كتب بها إلى لغات وثقافات أخرى تتعاطى هذا النمط الثقافي ليس بعيدا عن لفظه ودلالته العربيّة (**maqtal**)[١٦].

إنّ هذه الظاهرة لم تحظ حتى ولو بقدر قليل من عناية الدارسين، بالرغم من أنّها باتت تقليدا ثقافيّا - دينيّا ذا نزوع أدبي له شكله ومضمونه الخاصّين، أي أنّها ظاهرة اكتسبت بذلك طابعا مؤسّساتيّا، ساهمت في تأصيلها وتجذيرها كثرة الطبعات الحديثة التي ظهرت بأشكال وأحجام متنوّعة للمقتل الحسيني في العصر الحديث[١٧]، وأكدت كونه فعل اتصال قادر على إثارة المتلقي ودفعه من خلال الملفوظ اللغوي إلى تجذير انفعالات عاطفيّة ووجدانيّة خاصّة، وإلى تثبيت قناعات عقائديّة معينة، وإلى توطيد علاقة متلقييه من الأفراد بتراث المجموعة التي ينتمون إليها، وما إلى سوى ذلك من أمور أخرى.

المبحث الأول

المقتل الحسيني، نشأته وطبيعته

يُقبل المسلمون الشيعة في مناسبات دينيّة معروفة، كيوم عاشوراء، وأربعينية الإمام الحسين عليه السلام على الاستماع لقصة استشهاد الإمام الحسين، واسترجاع ما جرى في ذكرى هذا المصاب الجلل من خلال نص مكتوب يسمى (المقتل الحسيني، وجمعه مقاتل) يسرد تلك الأحداث بأسلوب متميّز وفريد، وبصوت شجي يثير الحزن والشجى لدى عموم المتلقين الذين تتفاوت أعدادهم بحسب طبيعة المكان الذي يُقرأ فيه هذا النص.

إنّنا نستهلك المقتل وننفعل لسماعه أشدّ الانفعال بشكل دوري، ولكن عندما نتساءل ما هو المقتل؟ وما طبيعته الأدبيّة؟ وما هي الوظائف التي يضطلع بها غير وظيفتي الإبكاء

وتهييج الذكريات الموجعة؟ وكيف تطوّر حتى وصل إلينا على هذا الشكل؟ وكيف استطاع أن يتجاوز حدّي اللغة والجغرافيا ليُعرف عند أمم أخرى أعجميّة بالاسم ذاته؟ إنّه سيلٌ من الأسئلة التي تثيرها عمليّة التفكير بهذا اللون ذي الطبيعة الأدبيّة الخاصّة من دون أن نجد جوابا ما! لأن البحوث الأكاديميّة والموسوعات الفكريّة أهملت هذا اللون الأدبي بالرغم من أهميته ورسوخه وذيوعه عند الملايين من الناس بمختلف ألوانهم وألسنتهم.

وعند العودة إلى لسان العرب لابن منظور مثلا، فإنّه يحدّد المعاني التي من الممكن أن نعثر عليها في مادة (ق ت ل) فيقول: (القتل معروف، قتلَه وتقتّله قتلا وتقتالا، وقتله إذا أماته بضرب أو حجر أو سمّ أو علّة، وأقتل الرجل عرّضه للقتل...)[١٨]، ثم لا يلبث صاحب المعجم حتى يضيف: والمَقتل، مَفعل: ظرف زمان، ففي حديث زيد بن ثابت: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة... أي عند قتْلهم في الوقعة التي كانت باليمامة مع أهل الردّة في زمن أبي بكر[١٩]، وينتهي ابن منظور إلى القول: (ومقاتل الإنسان: المواضع التي إذا أصيب بها قتلته، واحدها مَقتل)[٢٠] وبذا يدلّ لفظ (المقتل) على ظرف مكان كدلالته على ظرف زمان.

وإذا كانت أغلب المعاجم والقواميس العربيّة الأخرى لا تخرج عن هذه الدلالات التي يوردها لسان العرب، ولا تتخطاها في هذا الشأن؛ فإن المعاجم الأدبيّة والنقديّة الحديثة، والموسوعات الفكريّة المختصّة لا تكاد تورد لمصطلح (المقتل) ذكرا، أو حتى تعريفا صغيرا، إذ صمتت هذه المعاجم والموسوعات عن أي تعليق يشير إلى هذا التقليد الأدبي والثقافي الذي يمارسه الملايين من الناس بشكل دوري في كلّ عام، مع أنّ هذه المعاجم والموسوعات الأدبيّة المذكورة أتت على ذكر أشياء ومصطلحات دون هذا الأمر من الأهمية والانتشار والذيوع[٢١]، ولعلّ ذلك عائد إلى جملة أمور منها: أنّ هذه المعاجم اهتمت بضروب وتقاليد من الآداب المعروفة الأنواع، كالشعر والخطب والرسائل والأمثال والحكَم، وما إلى ذلك من مصطلحات متعلّقة بها أو قريبة منها، وهي أنواع اتّضحت ملامحها وعرفت خصائصها حتى أصبحت أسماؤها (مصطلحاتها) تحيل على دلالات ومعان معروفة.

في حين لا نجد كلمة (المقتل) إلّا مقرونة بكتب التاريخ وأخبار الأمم والناس[٢٢]، وهو ما يشي بأنّ لفظة (المقتل) في موروثنا الثقافي والأدبي تحيل أكثر ما تحيل على جزء من العلم

بالتاريخ الإسلامي في مراحله المبكرة من خلال بعض وقائعه المشهورة، وأخباره المعروفة.

وإذا كان أحد الدارسين يذهب إلى إمكانيّة اشتمال الخبر (الأدبي) العربي على مقوّمات تجنيس توفّر له خصوصيّة ضمن الأنواع الأدبيّة القارّة والمعروفة[٢٣]؛ فمن الممكن أن نعدّ المقتل بالأصل جنسا مضيَّفَا على الخبر قريب الصلة به، وإن كانت له خصوصيته وميزاته التي سنأتي على تحديدها.

وعند العودة إلى تاريخ المقاتل التي وصلت إلينا عبر الزمن نجد نسخة المقتل المنسوب إلى أبي مخنف من أقدم هذه المقاتل على الإطلاق، مع الإقرار بوجود كثيرٍ من الدس والإضافة والتحريف على هذه النسخة الأم إلى درجة جعلت أحد المهتمّين بهذا الشأن يشكك بصحة هذه النسخة أصلا، لا سيما عند مقارنتها بالأخبار والوقائع الواردة بكتب التاريخ المعتبرة ككتاب الطبري مثلا[٢٤]، أمّا أبو مخنف فهو: لوط بن يحيى بن سعيد الأزدي المتوفى سنة ١٧٥هـ، نسابة ومؤرّخ كوفي عاصر الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد صحبه في حياته طويلا [٢٥]، وقد عوّل الطبري في تاريخه المشهور مثلا، على الكثير من روايات هذا الرجل في نقله للأخبار والوقائع التي حدثت في العام الذي استشهد فيه الإمام الحسين وأهل بيته وأصحابه في أكثر من موضع من كتابه المعروف: تاريخ الأمم والملوك[٢٦].

بيد أنّ هناك من هو أسبق إلى كتابة المقتل من أبي مخنف غير أن المقتل الذي كتبه لم يصل إلينا بالمرّة، إذ يذكر صاحب كتاب (الذريعة) وهو كتاب موسوعي يرصد تصانيف الشيعة ومؤلفاتهم: إنّ أسبق المقاتل ظهورا في التاريخ هو المقتل المنسوب إلى أبي القاسم الأصبغ بن نباتة المجاشعي التميمي، والرجل ممّن صحب الإمام علي في حروبه، وعمّر بعده طويلا، غير أن المقتل الذي كتبه فُقد وضاع، ولم يبق منه ذكرُ إلّا اسمه الذي ورد في بعض المصنفات والفهارس العربيّة القديمة[٢٧].

وقبل الدخول إلى تحديد طبيعة المقتل الحسيني ومعرفة ملامحه الخاصّة التي تتيح لنا إمكانيّة تجنيسه أدبيا نستطيع القول: إنّ المقتل عبارة عن حكاية تروي خبر استشهاد الإمام الحسين وأصحابه المخلصين في واقعة الطف، كما تشتمل هذه الحكاية على مجموعة الجرائم التي ارتكبها أعوان يزيد من أهل الكوفة بحق الإمام وأهل بيته - عليهم السلام- قبل وقوع حادثة الطف في العاشر من محرم، وبعدها من خلال القيام بأفعال شنيعة ودنيئة، كإحراق

خيام الأطفال والنسوة اللواتي اصطحبهنّ الإمام الحسين معه، وتعريض من نجا من هؤلاء للتعذيب والعطش والإذلال، وغير ذلك من الأمور التي لا تليق بمثلهم خلال السفر الشاق والطويل من كربلاء إلى الشام في رحلة السبي المعروفة.

وقد كانت مجموعة المقاتل المكتوبة من زمن الواقعة وحتى يومنا هذا تشترك جميعا في عدد من الخصائص التي تلبّي حاجة جنس معين، فهي تركّز على شخصيّة محوريّة في هذه الحكاية، هي شخصيّة الإمام الحسين، كما تصف ما جرى من أحداث في كربلاء صبيحة يوم عاشوراء، مع خروجها إلى ذكر وقائع وأحداث أخرى تسبق هذا اليوم، كالحديث عن مصرع مسلم بن عقيل ابن عم الإمام الحسين عليه السلام ورسوله إلى أهل الكوفة مثلا، وكالحديث عن المضايقات التي تعرّض لها الإمام وأصحابه أثناء الطريق إلى كربلاء، أو قد تذكر وقائع وأحداثا معيّنة تتلو يوم العاشر من محرّم، كالحديث عن معاناة نساء الحسين وبناته ومن تبقّى من أهل بيته عند إحراق خيامهم وعند وقوفهم بين يدي أعوان يزيد بن معاوية في الكوفة، ثم بين يدي يزيد نفسه، وبحسب ما يقتضيه الحال أو المقام. أمّا هذه الخصائص فيمكن إيجازها على الشكل الآتي:

أ - يستدعي نظام المقتل وجود (مرسل) ذي صوت حسن يقرأ نصّا حكائيّا يقوم من خلاله بسرد مجموعة وقائع وأحداث وقصص تدور حول شخصيّةٍ محوريّة هي شخصية الإمام الحسين، فضلا عن شخصيات أخرى ثانويّة تختلف منزلتها بحسب الدور التاريخي المناط بها يوم الواقعة، وكلّ ذلك يجري في ظرف زمني له حيّز معيّن ومحدّد في كلّ نصوص المقاتل المكتوبة، إذ يبتدئ هذا الظرف الزمني عادة يوم العاشر من محرم (اليوم الذي استشهد فيه الإمام الحسين وأصحابه سنة ٦٣هـ) وينتهي في أربعينية الإمام الحسين الموافقة للعشرين من صفر، كما أن هذه النصوص تحتوي على قدر لا بأس به من الخيال الذي تستدعيه الحاجة للتأثير بالمتلقي أو السامع، وقد تختلف نسبة الخيال ودرجته بين نصّ مقتلي وآخر بحسب اختلاف الكاتب[٢٨].

ب - وبهذا، فقد اختلف نظام كتابة المقتل عن نظام كتب السيرة الأخرى التي تعرّضت لحياة الإمام الحسين عليه السلام حيث تبدأ تلك الكتب عادة من تاريخ ولادته وتنتهي عند يوم استشهاده في العاشر من محرم[٢٩] متماهية بذلك مع نظام كتابة السيرة النبويّة

لابن هشام.

ت - تؤدّي نصوص المقاتل المكتوبة بلغة ذات شجن وأسى عاليين والمقروءة بصوت رخيم ذي تأثير بالغ وظيفةً مزدوجةً سايكلوجية - اجتماعيّة، إذ إنّها ليست مجرّد نصوص مكتوبة لتسرد وقائع تاريخية حدثت قبل أربعة عشر قرنا فحسب، بل هي نصوص ما إن يقوم المتكلّم بأداء فعلها اللفظي حتى يدخل كلامه مرحلة أخرى اصطُلح على تسميتها بالفعل المترتب على الكلام، أي مرحلة التأثّر بالفعل اللفظي (الكلام) وهي مستوى آخر من مستويات اللفظ ومرحلة أخرى يتم خلالها إنجاز فعل اللفظ، وهو ما يمكّن النص (المقتلي) من أن يتحوّل إلى وسيلة تواصل ثقافي-اجتماعي تحمل قيما رمزية وطقوسا تعبّديّة أكثر مما تحمل من أخبار ووقائع وأحداث، إذ إنّنا عندما نتلفّظ النصوص في سياق ما فإنّنا - بحسب علماء اللغة- ننجز أفعالا لغويّة ذات طبيعة اجتماعيّة بالأساس لأنّها (تُنجز ضمن عملية تفاعل تواصلي، وهذا التفاعل يندرج في المقامات الاجتماعيّة)[٣٠].

ث - بالرغم من كون المقتل مكتوبا باللغة العربية أصلا؛ غير أنّ هذا الأمر لم يمنع من ظهور مقاتل بلغات أخرى كالفارسية والأورديّة مثلا، ثم الترجمات للغات أخرى كالإنجليزية والفرنسيّة وبالمصطلح ذاته (maqtal) وهذا يعني أن هذا الجنس من القول عابر للحدود الجغرافية واللغوية وله نظامه الخاص به الذي يفرض على الترجمان التقيّد به، وإن كانت الاستجابة له منحصرة بمتلق ذي خصوصيّة إسلاميّة - شيعيّة، وهذا ما يبيح لنا نعت هذا اللون من النصوص جنسا أدبيّا إسلاميّا لعدم وجوده وتداوله وفقا لنظامه المعروف عند أمم وشعوب أخرى غير الشعوب الإسلاميّة، والشيعيّة منها على وجه التحديد.

ج - وبذلك، فإنّ طقوس المقتل تشكّل استحضارا رمزيّا لواقعة مروّعة لا يمكن أن تستعاد مضامينها خارج حدود نوع من التواصل الجمعي الذي تحقّقه تأدية المقتل الحسيني بغية تعميم رموز أو علامات أو أشياء محددة، لجعلها عاملا مشتركا بين مجموعة من الأفراد، وهذا التواصل له دور كبير في الانتقال من الفردي إلى الجماعي من خلال اللغة التي تعدّ أهم الأنشطة الإنسانيّة بروزا في عمليات

التواصل حيث تقوم بعملية نقل المعلومات والأخبار من ذات مرسلة إلى ذوات أخرى تُرسل إليها هذه المعلومات والأفكار، لأن قدرة الإنسان على التواصل تتمّ من خلال أداة هي اللغة التي بدورها ستُصبح أداة للتواصل عندما تتحول إلى كلام[٣١].

ومن هنا، فالمقتل الحسيني قادر على اكتساب صفة (النص) إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار كون النص لا يكتسب هذه الصفة (إلّا داخل ثقافة معينة، فعمليّة تحديد النصوص يجب أن تحترم وجهة نظر المنتمين إلى ثقافة خاصّة)[٣٢]، وذلك (لأنّ الكلام الذي تعتبره ثقافة ما نصّا قد لا يعتبر نصّا من طرف ثقافة أخرى)[٣٣]. أي إنّ هذا الملفوظ الذي نحن بصدده سيكتسب قابليته على أن يكون نصّا بما سينضاف إلى مدلوله اللغوي من مدلول آخر، هو المدلول الثقافي الذي يقوى على منحه قيمة معيّنة داخل إطار الثقافة التي ينتمي إليها.

ولذا، فالمقتل الحسيني من الممكن عدّه جنسا أدبيّا كباقي الأجناس الأخرى، لأنّه يتّخذ الكلمة المقروءة أو المسموعة مادة له، حاله حال بقية الأجناس الأدبيّة، كالشعر والقصة والخاطرة والمقالة والمسرحية وسوى ذلك من أجناس أدبيّة معروفة، كما أنّه يشترك مع هذه الأجناس في اتخاذه الحياة البشرية ونماذجها الإنسانيّة الأصيلة موضوعا له، وان اقتصر في طرح قضيّته على تجربة بشرية معينة جسّدت موقف أنموذج معين وفريد، هو أنموذج الإمام الحسين وصحبه الأخيار في صراعه مع قوى الشر والبغي، وانطلاقا من أنّ رسالة هذا الرجل العظيم ما هي إلّا تجسيدٌ حيٌّ للعلاقة بين القيم والكبرياء الإنساني الذي لا يعرف الانهزام ولا التزلّف ولا التصنّع مع رجوم الظلم والجبروت.

المبحث الثاني

وظيفة المقتل الحسيني

إذا كان الأدب يختلف عن المجالات الفكريّة الأخرى في وسائل التعبير فإنّه يشاركها في أنّه لا بدّ أن يشتمل على قيم إنسانيّة معيّنة، وأنّه لا بدّ أن يكون غائيّا يهدف بالنتيجة إلى إيصال فكرة ما، أو تعزيزها أو تأكيدها، لذلك اختلف الباحثون والدارسون كثيرا، وتعدّدت آراؤهم حول وظيفة الأدب وغاياته، فمنهم من ذهب إلى أن المتعة الفنيّة من أهم

الوظائف التي تضطلع بها الآداب والفنون عموما، ومنهم من قصَر وظيفة الأدب على إيجاد منفعة ذاتيّة واجتماعيّة تتحصّل نتيجة لقراءته أو تلقّيه بطريقة ما.

غير أنّ الباحثين والدارسين سلّموا ببديهية تنطلق من أن (وظيفة الأعمال الأدبيّة على اختلاف لغاتها وعصورها وأشكالها هي ربط الأنا بالغير)[٣٤].

وقد يظنّ المرء في بادئ الأمر أنّ الوظيفة التي ينبري لها المقتل الحسيني عند قراءته أو الاستماع إليه تتجلى في الإبكاء وفي استذكار مواقف الحزن والألم الفاجع التي ألّمت بالإمام الحسين وأهل بيته وصحبه صبيحة العاشر من محرم، ولعلّ وظيفة الإبكاء هذه بحدّ ذاتها ليست بالوظيفة الهيّنة أو اليسيرة، فلا أحد يستطيع أن ينكر ما للبكاء من قيمة وأهميّة خلُقيّة وتهذيبيّة في حياة الإنسان وفي سلوكه، فقد جاء في التنزيل العزيز: (وإنّه هو أضحك وأبكى، وإنّه هو أمات وأحيا)[٣٥]، أمّا الحديث النبوي الشريف فيذكر: (يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تبكوا؛ فتباكوا، فإنّ أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنّها جداول حتى تنقطع الدموع؛ فتسيل فتقرح العيون، فلو أن سفنًا أرخيت فيها؛ لجرَتْ)[٣٦].

ويرى عالِم النفس الأمريكي (أليركاتس) أن البكاء والدموع يؤديان للإنسان منافع شتى، فهما يطهران مشاعرنا ويغسلان قلوبنا؛ فيجددان الأمل في النفوس، وقد علّل هذا العالِم رأيه قائلا: إنّ الانفعالات والأحاسيس القوية من حزن وألم وقلق تُوجِد في الإنسان بغتةً موادَ سامةً قاتلة فيَحدث له مثلما يحدث للأفعى التي تفرز إبان غضبها أو خوفها أو قلقها سماً مميتاً ولكنها يوجد في حنكها - بخلاف الإنسان - حَفرٌ مهيأٌ لتجميع السم، والإنسان ليس لديه مثل هذه الحُفر والأغوار، وكان مما لا بدّ منه أن تطغى السموم التي تُفرز في ساعات الغضب أو الخوف أو الحزن على الإنسان، وتنتشر في أطرافه، ولا شيء يحمي الإنسان من هذه الأخلاط، ويردّ أذاها عنه مثل الدموع التي تسيل من عينيه، فإنّها وسيلة نجاته من تلك السموم القاتلة[٣٧].

وما يهمّنا هنا هو الحالة التي تعتري متلقّي المقتل الحسيني، وما يخلّفه تلقّيه واستماعه له من شعور بالراحة والانشراح بعد أن يُلقي هذا المتلقي عن نفسه أعباءَها وكدرَها ومشاعرها المحبوسة التي استثارتها عوامل عديدة دفعت بصاحبها إلى البكاء بوصفه أحد الحلول أو

الوسائل التي يلجأ إليها الإنسان للتعبير عن أعماقه المخبوءة حينما لا تُسعفه وسائل وحلول أخرى، ولذا فرّق المفكرون والفلاسفة بين الحيوان والإنسان من خلال قدرة الأخير على الضحك والبكاء وافتقار الأول لهذه القدرة.

وربّما كانت هذه الوظيفة المذكورة، هي الوظيفة الأولى والمباشرة التي يؤدّيها المقتل لمتلقّيه العادي بعد أن يستمع للحكاية التي تروي قصة الصراع البطولي بين قطبي الخير والشرّ، وبعد أن يتمثّل أحداثها ووقائعها وما ينجم عن ذلك من شعور طاغ بالألم والحرقة التي يؤججّها وجود حشد جماعي تحرّكة حالة شعوريّة واحدة تفترض وجود اتفاق مشترك وضمني بين منتج الخطاب ممثّلا بقارئ المقتل ومتلقّيه حول شرعيّة بعض العقائد وقدسيّة المعتقدات التي تدور في طقوس التعزية الشيعيّة على اعتبار أن المقتل الحسيني هو أحد أشهر هذه الطقوس(٣٨).

وقد يخرج الاستماع إلى المقتل إلى وظائف أخرى عديدة، دينيّة واجتماعيّة ونفسيّة وسياسيّة، يستطيع الدارس أن يحدّد وجودها، كما الآتي:

أ - وظيفة دينيّة: إذا ما تجاوزنا مسألة صحة الروايات المتعلّقة بإقامة العزاء الحسيني والالتفات إلى الثواب الكبير والوعود الأخرويّة المترتبة على ذلك(٣٩) فإنّ المقتل الحسيني يحقّق لمتلقّيه من ضمن ما يحقّق مجموعة من الوظائف الدينيّة المعروفة، إذ يقوم بدور كبير وفعّال في نشر بعض التعاليم الدينيّة السليمة، كالحثّ على إقامة الصلاة في أوقاتها المحدّدة إسوة بالإمام الحسين الذي أدى صلاته جامعا صحابته والسهام تنوشهم ذات اليمين وذات الشمال، ولم ينقطعوا عن قراءة القرآن حتى وهم في أحلك الظروف، وقد كان يُسمع لهم ليلة عاشوراء دوّي كدوّي النحل من كثرة تسبيحهم وتهجّدهم بالقرآن(٤٠).

ولا شكّ أن طبيعة التواصل الناجمة عن هذا التنوّع الجماهيري المحتشد للاستماع للمقتل تُسهم بدور كبير في تأكيد هذه التعاليم وتعزيزها في نفوس الحاضرين، وإن كان ذلك الإسهام يتحقّق بنسب متفاوتة، كما أن المقتل سيُشجّع على تعزيز قدسيّة المقامات والمشاهد والأماكن التي حلّها الإمام الحسين وأصحابه وأهل بيته الكرام أثناء رحلتهم، أو تلك التي استُشهدوا فيها، ولعل أهم هذه الأماكن على الإطلاق بقعة الحائر مكان استشهاد الإمام عليه السلام وأصحابه،

وموضع أضرحتهم الطاهرة في مدينة كربلاء التي بُنيت على أثر هذه الأضرحة، ثمّ أنيطت بها مهام دينيّة عديدة حتى صارت مقصدا لملايين المسلمين الشيعة في العالم على مرّ العصور ممّا رفع مكانتها وقوّى منزلتها الدينيّة في نفوس المؤمنين عموما.

ب - وظيفة اجتماعيّة: تشتمل عملية الاتصال البشري، وما يترتب عليها بالضرورة من تفاعل اجتماعي يسعى إلى نقل المعلومات ويهدف إلى توحيد الأفكار لغرض تثبيت قناعات محدّدة وتأكيد سلوكيّات معيّنة[٤١]، أمّا التواصل الثقافي، فهو تبادل بين رموز وعلامات وأشياء داخلة ضمن عملية التنشئة الاجتماعية، ويلعب التواصل الثقافي بذلك، دورا أساسيا في تكوين الفرد وتشكيل إدراكه ووعيه بذاته وبالعالم المحيط به، فمن خلال التواصل يكسب الفرد وعيه و ذاتَه في سياق استنباطه لعلامات وتجارب الآخرين والاستفادة من سلوكيات ودروس الأفراد الذين يحتك بهم ويتفاعل معهم[٤٢].

ولّما كان المقتل الحسيني عبارة عن قصة تنقل أحداثا لشخصيّات إنسانيّة فذّة بقالب سردي مؤثر وجذّاب غايته (التكفير الجماعي عن طريق التذكّر والندم)[٤٣]، فلذا جاز أن نعدّه لونا من ألوان التواصل الثقافي الفاعل والمسهم بتذكير من يتلقّون هذا النص بتراث مجتمعاتهم، لتتكون صورة عنها في أذهانهم، ولكي لا تحدث قطيعة تؤدّي إلى نسيان ذلك التراث وإهماله على مرّ السنين بينهم وبين مجتمع الأجداد، فضلا عن المساهمة في تماسك المجتمع ووحدته وفي تقاربه مع المجتمعات الأخرى التي قد يتواصل معها ثقافيا، وقد يتعايش معها نتيجة لهذا التواصل تعايشا سلميّا سيقود - حتما - إلى تواصل خارج أطر الثقافة، كالتواصل السياحي والتواصل الاجتماعي، وما شابه ذلك. وممّا تقدّم نستطيع القول أنّ قراءة المقتل الحسيني وتداوله في مناسباته المعروفة ستساعد في المحافظة على اشتغال مجموعة من الطقوس والقيم والأعراف العقائديّة بوصفها تراثا قادرا على الإسهام في خلق هوية اجتماعيّة متجانسة، وفي بلورتها تاليا.

ت - وظيفة نفسيّة: ليس انتقاء المقتل الحسيني وتركيزه على ما تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام من ويلات ومظالم والتعامل مع ذلك كمميّز أو كبؤرة تنتظم حولها الوقائع التواصليّة الجامعة بين التشيّع كمؤسسة والشيعي كمستهلك

انتقاء محايدا، فالأشياء التي يتواصل من خلالها الناس المتفاعلون لا يمكن أن تدخل عالمهم الإنساني إلا حين تكون محمّلة بدلالات تحدد وضع هذه الأشياء ضمن العالم الإنساني(٤٤).

ويتجلى ذلك من خلال نظرية (التفاعل الاجتماعي الرمزي)(٤٥) التي ترى في المعاني والدلالات نتاجات اجتماعية تتولد من مجموعة أنشطة تنبثق منها مجموعة معاني تنبعث من الاعتمالات الناتجة عن العناصر النفسية لدى الشخص المنخرط ضمن جماعة يكون قادرا على التفاعل معها، ولذا حين يتم تداول تلك الويلات والمظالم بأسلوب حكائي منمّق عبر قنوات مختلفة كالمشافهة - وهي الطريقة السائدة في توصيل المقتل - أو عبر وسائل الإعلام المختلفة أو من خلال الطباعة التي أبرزت مجموعة كبيرة من المطبوعات الخاصة بكتب المقاتل ونصوصها؛ فإنّ هذا التداول سيحقّق قدرا كبيرا من التنفيس عمّن يتلقى هذه النصوص.

ولّما كانت غاية المقتل الحسيني هي تدعيم المشاعر الدينيّة وترسيخها عند المتلقين؛ فلذا سيُصبح الإبقاء على الموقف العقيدي والشعوري القائم مهمّا في عمليّة التواصل، وذلك من خلال تأكيد (عنصر التطهّر) أو التكفير عن الذنب بوصفه نوعا من العلاج النفسي المتيسّر(٤٦).

المبحث الثالث

بنية المقتل الحسيني

تنبني المقاتل - كما أسلفنا - على وجود راوٍ له مجموعة من الاشتراطات أهمّها أن يكون حسن الصوت مُجيدا للأداء اللغوي ذي الصبغة التمثيليّة، ويقوم هذا الراوي بإرسال خطاب طويل نوعا ما إلى مخاطب (جماعي) حقيقيّا كان أم افتراضيّا بلغة تميل إلى الواقعيّة والصدق، وإن تخللتها بعض عبارات الإيهام بالواقع وبعض الصور البلاغيّة.

ويقوم هذا الخطاب على محور واحد هو بمثابة إعادة لرواية حادثة رئيسة تخدمها مجموعة حوادث فرعيّة ليست ببعيدة أو غريبة عنها، بل هي ذات صلة وطيدة بها، أمّا هذه الحادثة فتتمثّل بقصّة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وهو يحاول تقويض حكومة يزيد الفاسدة لإقامة حكومة بديلة عادلة مستثمرا نقمة أهل الكوفة وتمرّد قادتها وزعمائها الذين سرعان

ما انقلب أكثرهم عليه قبل وصوله أبواب مدينتهم التي دعوه للتوجّه إليها وإعلان الثورة منها من خلال عشرات الكتب والمراسلات المثبّتة والمعروفة[٤٧] بهدف إسقاط حكومة الجور والضلال آنذاك.

وفي مناسبات دينيّة معيّنة كذكرى العاشر من محرّم يوم استشهاد الإمام الحسين وأصحابه في رمضاء كربلاء، وذكرى الأربعين الموافقة لعودة سبايا الحادثة من الشام ومرورهم بقبر الحسين وبكائهم عنده، وسوى ذلك من مناسبات أخرى تتمّ فيها عمليّة إرسال هذا الخطاب عن طريق استرجاع الحوادث المؤلمة بأسلوب أدبي شيق قادر على بعث عاطفة الحزن وتأجيجها عند المخاطب العارف بدوره لطبيعة هذه الحوادث التاريخيّة مسبقا.

وعليه، فإنّ العناصر الأساسيّة المكوّنة لبنية المقتل تتكوّن - فضلا عن الراوي ذي الصوت الشجي والمشارك عادة في طريقة رسم الأحداث وصياغتها بشكل مؤثّر[❖]- من المكوّنات الآتية:

أ - الشخصيّات: اعتُمدت الشخصيّة عند النقّاد والمهتمّين معيارا أساسا في تحديد نمط النص السردي من حيث الواقع والتخييل، فالتفريق بين النص الواقعي والتخييلي يستند إلى مسألة تفريد الشخصية، أي طريقة تمثيل شخصية ما بطريقة فنيّة[٤٨]. غير أن الشخصيّات التي ترد في المقتل هي شخصيّات تراعي قواعد المنطق والتاريخ، أي أنّها شخصيّات معلومة لها وجود واقعي عند قيامها بمجموعة أفعال وأحداث في زمن ماض معلوم أيضا، ولعلّ شخصيّة الإمام الحسين وبطولته الفذّة كانت مرتكزا تتمحور حوله الحركة والفكرة في بنية المقتل من الناحية التاريخيّة والأدبيّة، دون أن ننسى أيضا، اشتمال بنية المقتل على وجود مجموعة شخصيّات أخرى (رئيسية وثانويّة) مخلصة في عسكر الإمام، ولها معادل مطابق في الكون الواقعي، وعلى وجود شخصيّة (انقلابيّة) هي شخصية الحرّ الرياحي، فضلا عن وجود شخصيّات شريرة في معسكر يزيد هي -كذلك- شخصيّات رئيسة وثانويّة بحسب طبيعة الدور المناط بها من الناحية التاريخيّة، وبحسب قيمة الفعل والدور الذي قامت به أثناء الواقعة...

ب - الزمن: حظي الزمن السردي باهتمامات الدارسين والنقاد مع القفزة المنهجيّة التي شهدتها مناهج الدرس الأدبي حديثا، ولأن الزمن هو (القوة الموجهة لتاريخ الإنسان الفردي والجماعي)[٤٩] لذا، عدّ من المحدّدات التي تفرّق بين ما هو واقعي وما هو تخييلي في السرد، فإذا كانت التقاليد الأدبيّة التخييليّة تستخدم عند القص طرائق تنتفي فيها الحدود الواضحة للزمن من ناحية بداياته ونهاياته ومدة استغراقه في بعض الأحيان؛ فإن طريقة السرد في المقتل الحسيني تنتمي لنوع من السرد الواقعي المؤطّر ضمن سيرورة زمنيّة محدّدة، فهي تمتدّ -كما أسلفنا- من لحظة خروج الإمام الحسين من المدينة المنوّرة متوجّها إلى الكوفة، مرورا باستشهاده وأصحابه الأطهار، وانتهاء بعودة السبايا إلى المدينة المنورة ناعين الحسين وأصحابه، وهي مدة تقترب بمجموعها من الشهرين، أو تزيد قليلا.

ت - المكان: في تصوّرات السرديين الذين لم يقدّموا للآن نظريّة متكاملة للفضاء السردي[٥٠] ظلّ المكان يتحدّد على أنّه ملازم ضروري للزمان، وقد اعتُمد معيارا للفصل بين السرد الواقعي والسرد التخييلي حيث يقع الأول منهما داخل محيط واقعي حقيقي تتشخّص فيه الأمكنة بوضوح، وتتحدد المواقع المرتبطة ارتباطا وثيقا بالأحداث التي تتحدث في بنية المقتل الحسيني عن حياة واقعيّة جرت بالفعل في أمكنة معلومة (المدينة المنورة، الطريق إلى الكوفة، كربلاء، الكوفة، الطريق إلى الشام، دمشق، إلخ).

ث - أمّا العنصر الأخير من العناصر المكوّنة لبنية المقتل فهو مجموعة الأحداث المتتابعة والمجسّدة لفكرة البطولة ولدورها في الحياة والأدب، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار إنّ الحياة بمجملها لم تكن تصل إلى ما وصلت إليه إلّا بفضل وجود عناصر بطوليّة استطاعت الحدّ من قوة الشرّ أو التغلب عليه[٥١]، وبما أن هذه الأحداث هي نقل لحياة واقعيّة حدثت بالفعل فإن وظيفة اللغة في سرد الأحداث ستترفع عن تسخير الأسلوب تسخيرا زخرفيّا ينحرف عن كونه عرضا أصيلا لتجربة بشرية حدثت لأفراد واقعيين.

المبحث الرابع

المقتل الحسيني وإمكانيّة دراسته منهجيًا

اتّضح لنا ممّا تقدّم أن المقتل الحسيني من الممكن أن يكون جنسا أدبيّا إسلاميّا بما توافر له من خصائص مميّزة له عن سائر الأجناس الأدبيّة الأخرى، وبما يضطلع به نظام بثّه وتلقّيه من وظائف ذات طبيعة أدبيّة، وبما اشتملت عليه بنيته من عناصر ومكوّنات ذات طبيعة (سرديّة)، وتأسيسا على ذلك نتساءل عن وضع المقتل الحسيني إزاء مناهج النقد الأدبي، وعن إمكانيّة دراسته على ضوء معطيات المناهج النقدية ما دام نصّا قادرا على النهوض بمقوّمات جنس أدبي خاص.

ولّما كان تاريخ الأدب هو تاريخ أحداث أكثر مما هو تاريخ أساليب وجماليّات أدبيّة؛ فإنّ المنهج التاريخي سيكون منهجا مناسبا للكشف عن الظروف والملابسات التي أنتجت النص المقتلي، كما سيكون هذا المنهج قادرا على تتبع أصول هذا النص، ورصد التغيّرات الحادثة بفعل تعدّد كتّابه عبر الزمن انطلاقا من مبدأ كون التاريخ عمليّة استحضار لصورة الماضي الإنساني، وإن منهج البحث فيه هو محاولة لتفسير الوقائع التاريخيّة من خلال النصوص التي أسهمت في إنتاجها وتداولها تلك الوقائع والأحداث.

كما أن المنهج النفسي بما يتوافر له من مفاهيم واصطلاحات وإجراءات علميّة قادر على تفسير مسألة الكبت الفردي والجمعي التي أسهمت في إنتاج هذه النصوص وانتشارها على اعتبار أنّها بمثابة نداء يُتوجّه به إلى فئات اجتماعيّة ودينيّة همّشتها سلطات سياسيّة متعاقبة بسبب دوافع عديدة، مثلما بمستطاع هذا المنهج أن يميط اللثام عن المخزون اللاواعي من المشاعر والأحاسيس التي كوّنت روح كلّ مؤلف من مؤلفي هذه النصوص المتعدّدة.

أمّا المنهج الاجتماعي المفسّر للكتابة على أنّها حدث ذو طبيعة اجتماعيّة، فبمستطاعه التركيز على طبيعة الفئة الاجتماعيّة التي أنتجت هذه النصوص في ظرف تاريخيّ معين، وعلى طبيعة الفئة الاجتماعيّة التي تستهلك مثل هذه النصوص وتتداولها على وفق طبيعة الخصائص التي تميّز هذه الفئات الاجتماعيّة وتجعل من هذه النصوص تمتلك قابليّة الذيوع والانتشار بسبب ظروف اجتماعيّة محدّدة.

ولّما كانت السيميولوجيا علما يتناول الرموز والإشارات والعلامات والبحث في علاقاتها بالدلالات والمعاني المختلفة التي يمكن أن تشير إليها داخل النصوص الأدبيّة أو فيما تشتمل عليه الممارسات الثقافيّة الدالة؛ فإن المناهج التي تعوّل على هذا العلم ستجد في نصوص المقتل الحسيني ميدانا خصبا لاشتغالاتها لما تتوافر عليه نصوص المقتل من علامات جمّة نطمح إلى معرفة أنظمتها الخاصة.

في حين تستطيع المناهج البنيويّة الحديثة أن تتعامل مع نص المقتل الحسيني انطلاقا من قابلية هذه المناهج في معالجة أي ملفوظ قولي يحمل سمة النصيّة بغية الكشف عن خصائصه البنائيّة وتحديد عناصر هذه الخصائص وتحديد وظيفة كلّ عنصر من هذه العناصر في مجموع التشكيل البنائي العام لكلّ نص من النصوص، وإمكانية مقارنته بالتشكيل البنائي العام لنص آخر ينتمي لمؤلف آخر.

وهكذا نجد أن كلّ من هذه المناهج المذكورة، وحتى المناهج الأخرى التي لم تذكر سيكون صالحا لدراسة نص المقتل الحسيني دراسة أدبية؛ ما دام هذا المنهج أو ذاك قادرا على إنارة جانب من الجوانب التي يوليها اهتمامه ويسلط عليها أضواءه بغية تقصّي أبعاد هذا النص، ومتابعة خفاياه وكوامنه، ولا شكّ أن الدراسة الأكاديميّة المعمّقة - إذا ما انبرت لدراسة المقتل الحسيني- ستُسهم كثيرا في الكشف عن هذه الأبعاد والخفايا، كما ستساعد في الإحاطة بطريقة تطور هذا الجنس الأدبي ذي الطبيعة الإسلاميّة، وهذا ما نأمله من دارسي الآداب وعشاقها مستقبلا.

نتائج البحث:

يمكن أن نخلص ممّا تقدّم إلى النتائج الآتية:

أ - إنّ المقتل الحسيني جنس أدبي مثل بقية الأجناس الأدبيّة السرديّة الأخرى.

ب - وهو خطاب طويل نسبيّا مكتوب بأسلوب أدبي لينقل إبلاغا بواقعة تاريخيّة.

ت - أمّا مضمون هذا الخطاب فهو عبارة عن مجموعة أحداث بطوليّة قام بها مجموعة أشخاص أبرزهم الإمام الحسين الذي كان محور هذا الخطاب وقطب الرحى فيه.

ث - يتكون هذا الخطاب من مجموعة عناصر تشكّل بنيته الأدبيّة الخاصة والشبيهة ببنية

الأعمال والفنون السردية المعروفة.

ج - ويقتضي متلقيا غالبا ما يكون جمعيا ليثير بعد الانتهاء من الاستماع إليه الحزن والأسى، ومن ثمّ يتجاوز ذلك إلى وظائف وغايات أخرى (دينية -اجتماعيّة- نفسيّة) تؤكد كونه جنسا أدبيّا إسلاميّا أو مؤسسة أدبيّة أساسها فعل كلام.

ح - وهذا الجنس الأدبي الإسلامي الخاص بمقدوره -بالنتيجة- أن يكون ميدانا خصبا للمناهج النقديّة على اختلاف توجّهاتها ومفاهيمها وتوسلاتها الإجرائيّة.

هوامش البحث

(١) حمادي صمود: من تجلّيات الخطاب الأدبي، قضايا نظريّة، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ١٩٩٩م، ص ٨٥.

(٢) أوستن وارين، رينيه ويليك: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٩.

(٣) ينظر، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربيّة: د. رمضان عبد التوّاب، راجع الترجمة: د. سيد يعقوب بكر، دار المعارف، مصر، ط٢ د.ت، ج٥ ص٢١١ وما بعدها، ج٦ ص٢٧٣ وما بعدها.

(٤) ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ج٢، ص ٥٥٣.

(٥) ينظر، عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة، دراسات بنيويّة في الأدب العربي، دار توبقال، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦، ص ٢٤.

(٦) ينظر، أرسطوطاليس: في الشعر، تحقيق: شكري عيّاد، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢م، ص ٢٨.

(٧) للوقوف على ذلك، ينظر مثلا، جيرار جنيت: مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د. ت، ص ٥.

(٨) ينظر، أيضا رينيه ويليك: مفاهيم نقدية، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١٠، الكويت، ١٩٨٧، ص ٣١٢ حيث ينقل ويليك عن (واران) شكوكه التي تراوده عن إمكانية تمسكه بهذه التقسيمات الثلاثة، وعما إذا كانت هذه التقسيمات يمكن أن تكون لها مكانة نهائيّة..

(٩) للاستزادة بذلك ينظر، مثلا، د. عبد العزيز شبيل: نظرية الأجناس الأدبيّة في التراث النثري، جدليّة الحضور والغياب، دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، ط١، ٢٠٠١م، ص.

(١٠) للوقوف على ذلك ينظر مثلا، ياوس: أدب العصور الوسطى ونظرية الأجناس، ضمن كتاب: نظرية الأجناس الأدبيّة، تعريب: عبد العزيز شبيل، مراجعة: حمادي صمود، منشورات النادي الأدبي الثقافي بجدة، رقم٩٩، ط١، ١٩٩٤م، ص ٥٠ وما بعدها.

(١١) ينظر، أوستن وارين، رينيه ويليك: نظرية الأدب، مصدر سابق، ص ٣٥٠.

(١٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٧.

(١٣) ينظر، نفسه، ص ٢٤٦.

(١٤) مصطفى الغرافي: تجنيس السرد العجائبي، موقع ديوان العرب http://www.diwanalarab.com

(١٥) ينظر، حمادي صمّود: من تجلّيات الخطاب الأدبي، مصدر سابق، ص ٨٥-٨٦.

(١٦) ينظر، Muhammad -Reza and Fakhr -Rohani: The Maqtal Genre: A Preliminary Inquiry and Typology www.cyclopaedia.info/wiki/Maqta

(١٧) ينظر، د. علي محمد ياسين: المقتل الحسيني، دراسة بيبلوغرافيّة، بحث مطبوع على الآلة الكاتبة غير منشور، وقد أحصى فيه الباحث المقاتل المنشورة التي جاوزت الـ(٦٠)مطبوعا.

(١٨) ابن منظور: لسان العرب، حقّقه وعلّق عليه: عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣، مج١١، ص ٦٥١.

(١٩) ينظر، نفسه، ص٦٥٢.

(٢٠) نفسه، ص٦٥٤.

(٢١) للوقوف على ذلك ينظر مثلا، المعاجم الآتية:

أ - معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب: مجدي كامل وهبة، وكامل المهندس، وقد صدرت طبعته الأولى ببيروت عام ١٩٧٩م.

ب - المعجم الأدبي: جبور عبد النور، وقد صدرت طبعته الأولى في دار صادر، بيروت عام ١٩٧٩م.

ت - معجم المصطلحات الأدبيّة: سعيد علوش، وقد صدرت طبعته الأولى في دار الكتاب اللبناني، بيروت- شوستريس، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

وكلّ هذه المعاجم وسواها من الموسوعات العلميّة لم تشر إلى دلالة (المقتل) لا من بعيد ولا من قريب.

(٢٢) تجدر الإشارة هنا إلى أن الطبري شيخ المؤرخين المتوفى (٣١٠هـ) هو من أوائل المؤرخين العرب الذين أوردوا خبر مقتل الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام اعتمادا على روايات أبي مخنف بأسانيدها المختلفة، للاستزادة بذلك ينظر، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، راجعه وقدم له: نواف الجراح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م، ج٣، ص ١٠٢٥ وما بعدها.

(٢٣) ينظر، د. محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، دراسة في السرديّة العربيّة، منشورات كلية الآداب، منوبة- تونس، ط١، ١٩٩٨م، ص ٢١ وما بعدها.

(٢٤) ينظر، عباس القمي: الكنى والألقاب، المطبعة الحيدريّة، النجف، ط٣، ١٩٦٩م، ص١٥٥.

(٢٥) ينظر، نفسه، والصفحة نفسها.

(٢٦) ينظر الطبري: تاريخ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص ١٠٢٤- ١٠٥٩.

(٢٧) ينظر، آغا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط٢ ١٩٨٨، ج٢٢، ص٢٣-٢٤.

(٢٨) للوقوف على هذه الاختلافات ينظر،

أ - شهادة الحسين عليه السلام برواية محمد بن جرير الطبري تلخيص وتعليق: السيد محمد حسين الحسيني الجلالي، تحقيق وتدقيق: السيد أحمد نعمة الموسوي، الناشر: ديوان الكتاب للثقافة والنشر، بيروت، لبنان ط١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

ب - قصة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، تأليف: الشيخ المفيد، دار المرتضى، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢٩) للوقوف على بعض الكتب التي تناولت سيرة الإمام الحسين عليه السلام ينظر مثلاً:

أ - عبد الله العلايلي: سيرة الحسين السبط، مطبعة الكشافة، بيروت، لبنان، د.ت و د. ط، ص ٥ وما بعدها.

ب - هادي المدرسي: الإمام الحسين عليه السلام سيرة ومقتل- إصدار: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م، ص٣ وما بعدها.

(٣٠) فان ديك: النص، بنايته ووظائفه، مدخل أولي إلى علم النص، ضمن كتاب: نظريّة الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد: د. محمد العمري، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٤، ص ٧٣.

(٣١) ينظر، د. رضوان القضماني: مدخل إلى اللسانيات، منشورات جامعة البعث، د. ط، د.ت، ص ٤١

(٣٢) عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة، مصدر سابق، ص ١٦

(٣٣) عبد الفتاح كيليطو: نفسه.

(٣٤) شكري محمد عيّاد: فن الخبر في تراثنا القصصي، مجلة فصول، مج٢، ع٤، يوليو-أغسطس-سبتمبر، ١٩٨٢م، ص١٢.

(٣٥) سورة النجم، آية:٤٣

(٣٦) ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، الحديث رقم (٤١٩٦) ص ٧١٩.

(٣٧) نقلا عن، علي محمد سلام: البكاء والدموع في الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية، مركز الإسكندريّة للكتاب، الإسكندريّة، جمهورية مصر العربية د.ت، ص: ٣٨ - ٣٩.

(٣٨) للوقوف على ذلك ينظر، اندريه فيرث: ملامح التعزية الإيرانيّة، دراسة سيميوطيقيّة (علاميّة) ضمن كتاب: التفسير والتفكيك والأيديولوجيّة ودراسات أخرى، تأليف: بيتر بروك، تيري إيجلتون، سو. ألين كيس وآخرون، اختيار وتقديم: نهاد صليحة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٧٤.

(٣٩) للاستزادة في ذلك ينظر مثلا، د. الشيخ عباس كوثري: العزاء الحسيني، قراءة في الأصول الفقهية الاجتهاديّة، مجلة نصوص معاصرة، بيروت، السنة التاسعة، العددان ٣٢-٣٣ خريف وشتاء ٢٠١٤م،ص١٥٨ وما بعدها.

(٤٠) ينظر، مثلا، كامل سلمان الجبوري: مقتل الإمام الحسين برواية أبي مخنف، استخراج وتنسيق وتحقيق، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٥٢ وما بعدها، وينظر، أيضا، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس: الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق: الشيخ فارس الحسون، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م، ص ١٠٥ وما بعدها.

(٤١) ينظر، د. إبراهيم أبو عرقوب: الاتصال الإنساني، ودوره في التفاعل الاجتماعي، دار مجدلاوي، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٣م، ص ٤٨.

(٤٢) ينظر، محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل- مفارقات العرب والغرب- دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٣ م، ص ١٦٤.

(٤٣) اندريه فيرث: ملامح التعزية الإيرانيّة، مصدر سابق، ص ٢٦٨.

(٤٤) ينظر،، محمد نور الدين أفاية: المتخيل والتواصل، مصدر سابق، ١٦٨.

(٤٥) تقول نظرية التفاعل الاجتماعي الرمزي: إن الهوية تتكون من خلال التفاعل ومن خلال العلاقات المتبادلة بين الفرد ومحيطه، وبحسب التفاعل الرمزي يتعلم الفرد القواعد السلوكية والقوانين التي تجعله كيف يفكر عن نفسه وبنفسه، للاستزادة ينظر مثلا، د. إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص١٨١

(٤٦) ينظر، أندريه فيرث: ملامح التعزية الإيرانيّة، مصدر سابق، ص ٢٧٨.

(٤٧) ينظر مثلا، أبي مخنف: مقتل الحسين عليه السلام منشورات الرضا، قم ط٢، ١٣١٦هـ، ص١٠.

(٤٨) للتوسع بذلك ينظر مثلا، فانسون جوف: أثر الشخصية في الرواية، ترجمة: لحسن أحمامة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ٢٠١٢، ص ١٩.

(❖) لا زالت الذاكرة الجماعية للعراقيين تحتفظ بأسلوب الأداء المميّز لبعض قرّاء المقتل الحسيني كحمزة الصغير وياسين الرميثي، وسواهما.

(٤٩) مصطفى الغرافي: تجنيس السرد العجائبي، موقع ديوان العرب، مصدر سابق.

(٥٠) للتوسع بذلك ينظر، محمد القاضي وآخرون: معجم السرديّات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٢، ص٣٠٦ وما بعدها.

(٥١) ينظر، د. نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمّة، دراسة مقارنة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت) ص ١٧.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

أولا / الكتب

- د. إبراهيم أبو عرقوب: الاتصال الإنساني، ودوره في التفاعل الاجتماعي، دار مجدلاوي، عمان- الأردن، ط١، ١٩٩٣م.
- ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- ابن ماجة، الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.
- ابن منظور: لسان العرب، حقّقه وعلّق عليه: عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، راجعه وقدم له: نواف الجراح، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.
- أبو مخنف: مقتل الحسين عليه السلام، منشورات الرضا، قم ط٢، ١٣١٦هـ.
- د. إحسان محمد الحسن: موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- أرسطوطاليس: في الشعر، تحقيق: شكري عيّاد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، د. ط، ٢٠١٢م.
- آغا بزرك الطهراني: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.
- أوستن وارين، رينيه ويليك: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.
- بيتر بروك، تيري إيجلتون، سو. ألين كيس وآخرون: التفسير والتفكيك والأيديولوجيّة ودراسات أخرى، اختيار وتقديم: نهاد صليحة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.
- جيرار جنيت: مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمن أيوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، د. ت.
- حمادي صمود: من تجلّيات الخطاب الأدبي، قضايا نظريّة، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ١٩٩٩م.

-د. رضوان القضماني: مدخل إلى اللسانيات، منشورات جامعة البعث، د. ط، د.ت.

- رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس: الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق: الشيخ فارس الحسون، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

- سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبيّة، عرض وتقديم وترجمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت- شوستريس، الدار البيضاء، ١٩٨٥م.

- عباس القمي: الكنى والألقاب، المطبعة الحيدريّة، النجف، ط٣، ١٩٦٩م.

- عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة، دراسات بنيويّة في الأدب العربي، دار توبقال، المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.

- د. عبد العزيز شبيل: نظرية الأجناس الأدبيّة في التراث النثري، جدليّة الحضور والغياب، دار محمد علي الحامي، صفاقس، تونس، ط١، ٢٠٠١م.

- عبد الله العلايلي: سيرة الحسين السبط، مطبعة الكشافة، بيروت، لبنان، د.ت و د. ط.

- علي محمد سلام: البكاء والدموع في الفلسفة والأدب والحياة الاجتماعية، مركز الإسكندريّة للكتاب، الإسكندريّة، جمهورية مصر العربية د.ت.

- فانسون جوف: أثر الشخصية في الرواية، ترجمة: لحسن أحمامة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ٢٠١٢.

- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربيّة: د. رمضان عبد التوّاب، راجع الترجمة: د. سيد يعقوب بكر، دار المعارف، مصر، ط٢ د.ت.

- كامل سلمان الجبوري: مقتل الإمام الحسين برواية أبي مخنف، استخراج وتنسيق وتحقيق، دار المحجة البيضاء، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

- مجدي وهبة، وكامل المهندس: معجم المصطلحات العربيّة في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط١ ١٩٧٩م.

-د. محمد العمري: نظريّة الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد، دار أفريقيا الشرق، المغرب، ط٢، ٢٠٠٤م.

-د. محمد القاضي: الخبر في الأدب العربي، دراسة في السرديّة العربيّة، منشورات كلية الآداب، منوبة- تونس، ط١، ١٩٩٨م.

-محمد القاضي وآخرون: معجم السرديّات، دار محمد علي للنشر، تونس، ط١، ٢٠١٢م.

-محمد نور الدين أفاية: المتخيّل والتواصل- مفارقات العرب والغرب- دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.

- الشيخ المفيد: قصة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، دار المرتضى، بيروت، لبنان. ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

-د. نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهمّة، دراسة مقارنة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)

-هادي المدرسي: الإمام الحسين عليه السلام سيرة ومقتل- إصدار: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ط١ ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

ثانيا / الدوريات

-رينيه ويليك: مفاهيم نقدية، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١١٠، الكويت، ١٩٨٧م.

-شكري محمد عيّاد: فن الخبر في تراثنا القصصي، مجلة فصول، مج٢، ع٤، يوليو - أغسطس - سبتمبر، ١٩٨٢م.

- د. الشيخ عباس كوثري: العزاء الحسيني، قراءة في الأصول الفقهية الاجتهاديّة، مجلة نصوص معاصرة، بيروت، السنة التاسعة، العددان ٣٢-٣٣ خريف وشتاء ٢٠١٤م.

ثالثا / مواقع الشبكة الدولية

1- www.cyclopaedia.info/wiki /Maqtal

2- http://www.diwanalarab.com